

القرآن في نظمه « وظهرت كذلك هذه الفكرة واضحة في الصراع الذي أثاره امتزاج الثقافات ، وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية . فإن كتاب الواسطي المفقود لا ينهض حجة على ذلك ، وتعصب المثقفين بالثقافة المترجمة المعاني ولمنطق أرسطو وعدم اهتمامهم بالألفاظ ، ودفاع علماء العربية عن الأسلوب العربي ، وتنقصهم لمعاني أرسطو ومنطقه ، كل ذلك لا شبه بينه وبين نظرية النظم عند عبد القاهر .

وعلى أي حال . فإننا لا نذهب إلى أن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر فحسب ، ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم . هذا الشرح الجديد حقاً ، وتطبيقه عليها هذه التطبيقات النقدية البيانية الواسعة ، وفرق على أية حال بين أية نظرية في استنباطها وبينها في قمة ازدهارها . وإذا كان عبد القاهر لا يخرج بالنظم عن معاني النحو ، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعاني المتجددة المختلفة ، فإن الجديد عند عبد القاهر أيضاً هو أنه استخدم معاني النحو وأحكامه استخداماً جديداً بيانياً نقدياً محضاً ، وإلا لكان في النحو غنى عن كل ما قرره عبد القاهر الجرجاني والبلاغيون من أحكام بيانية بلاغية ، وذلك ما يرده عبد القاهر ويؤكد نفيه له في كتابه ، كما يقرر في كل فصل من فصول « الدلائل » أن لا سبيل إلى معرفة الإعجاز إلا « النظر في الكتاب الذي وضعناه » واستقصاء التأمل لما أودعناه وأنه « الطريق إلى البيان والكشف عن الحججة والبرهان ، وأن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا الوصف الذي كان له معجزاً ، والطريق إلى العلم به موجود أي ممكن، ويكرر في الكتاب أنه يقرر أموراً صعبة على الفهم ، وغير ذلك مما جعل عبد القاهر يشهد ذهنه في تقريرها . وذهن القارئ والسماع في تقبلها لوجه الجدة فيها ، وأنه المبتكر لها .

ولقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبي الخالص اعتماداً كلياً في كل ما قرره من أحكام ، مؤكداً أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقفاً من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدته نفسه بأن لما يوميء إليه من الحس واللفظ أصلاً وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل